ابن الحنبلي (٥٣٦هـ)
وكتابه
الرسالة الواضحة
في الرد على الأشاعرة

دراسة وتحقيقه وتعليقه
علي بن عبد العزيز بن علي الشبل
عفا الله عنه وعن والديه ومشايخه والمسلمين آمين

أطروحة العالمية "الماجستير" في العقيدة

الجزء الأول

مجموعة التحف النفائس الدولية
للنشر والتوزيع

التمهـــيد

وفيـه:

أولاً : عصر المؤلف من الناحية السياسية والاجتماعية.

ثانياً: عصر المؤلف من الناحية الدينية والعلمية.

ثالثاً: فتنـة ابـن القشيـري، وأسبـابهـا، وآثـارهـا.

أولاً: عصر المؤلف من الناحية السياسية والاجتماعية:

إن الزمن الذي عاش فيه الشيخ عبدالوهاب بن الحنبلي يمثل آخر القرن الخامس وأول القرن السادس الهجريين، وتقريباً من سنة ٤٧٦هـ، وهي التي ولد فيها ظناً، إلى وفاته سنة ٥٣٦هـ تأكداً.

وتميز عصره بتفكك الدولة العباسية في العراق، ونشوء الدويلات في تضاعيفها في المشرق والمغرب.

ولذا سيكون البحث عن الحالة السياسية في عصر الشيخ ابن الحنبلي من خلال عدة محاور رئيسة، تجمع الصورة السياسية لعصره، وهذه المحاور هي:

١- بقايا الدولة العباسية بالعراق.

٢- الدويلات التي لها نفوذ في عصر الحافظ ابن الحنبلي.

٣- الحروب الصليبية على العالم الإسلامي.

٤- الثورات الباطنية.

والمقصود من هذا المبحث إعطاء صورة مجملة عامة عن الحالة الإدارية والسياسية للعصر الذي نشأ فيه المؤلف، وربط هذا بتأثره بهذا العصر، ومن ثم تأثيره فيه. كله بالإيجاز، وتفاصيل ذلك في مظانه من كتب التواريخ والسير.

***

○ المحور الأول: بقية الدولة العباسية:[1]

في الحقيقة شهد القرن الخامس الضعف الواضح على الخلافة العباسية، إذ أضحت خلافه صورية شكلية ترمز فقط إلى وحدة المسلمين من خلال إمرة أمير المؤمنين من بني العباس في بغداد، مع تولي غيره المقاليد، وهم:

* إما وزراء ذو شخصيات قوية، ونفوذ مؤثر، تولوا مقاليد الأمور.
* أو ملوك أخرون من دويلات مجاورة قامت حول مركز الخلافة، فأصبح الشأن من تدبيرهم.

مع أنه لم يخلُ الحال من وجود بعض خلفاء بني العباس ممَّنْ يكون لهم نفوذ وتصرف في السياسات الخارجية، مع أن الغالب الأعم هو التبريك والتأييد للأقوى من الملوك والسلاطين في الدويلات القائمة وقتئذ.

وهذا مسردٌ بالخلفاء العباسيين في ذلك العصر، ومدد خلافاتهم:

---

(١) ينظر في هذه المحاور في: الكامل لابن الأثير ١٠/ ١٢٩-١١/ ٢٠١، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٤-٧٩، وتاريخ الخميس ٢/ ٣٥٩-٣٦٣، ودول الإسلام ٢/ ٦-٧٢، وتاريخ الإسلام من حوادث سنة ٤٨٣هـ ص ٣٣ ـ حوادث سنة ٥٥٥هـ ص ٢٩، والعبر ٢/ ٣٣٤-٤٦٩ (العلمية)، والإنباء في تاريخ الخلفاء ٢٠٥-٢٢٥، وتاريخ الخلفاء ٤٢٦-٤٤٢، وتاريخ ابن القلانسي ١٣٦-٣٥٩، وتاريخ الفارقي ٣٦٠- ٣٦٥، وتاريخ الزمان ١٢١-١٧٤، وتاريخ مختصر الدول ١٩٥-٢٠٩، وخلاصة الذهب ٢٦٩-٢٧٦، والمختصر في أخبار البشر ٢/ ٢٠٤-٢/ ٣٧، والبداية والنهاية، ١٢/ ١٤٦-٢٤١، وتاريخ ابن خلدون ٣/ ٤٨٠-٥٢٢، ومآثر الإنافة ٢/ ١٧-٤٤، والجوهر الثمين ١/ ١٨٧-٢٠٩، والروضتين لأبي شامة ١/ ٦٦-٣١٠، والنجوم الزاهرة ٥/ ١٣٩-٣٣٢، والتاريخ الباهر ١٣-١١٤، ومختصر التاريخ ٢١٢-٢٣٢، وزبدة التواريخ ١٥٧-٢٦٨.

١- خلافة المقتدي بأمر الله أبي القاسم عبدالله (٤٦٧-٤٨٧هـ) في ١٩ سنة وثمانية أشهر.

٢- خلافة المستظهر بالله أبي العباس أحمد بن المقتدي (٤٨٧- ٥١٢هـ) في ٢٤ سنة.

٣- خلافة ابنه المسترشد بالله أبي منصور الفضل بن المستظهر (٥١٢- ٥٢٩هـ) في ١٧ سنة وثمانية أشهر.

٤- خلافة الراشد بالله أبي جعفر منصور بن المسترشد (٥٢٩- ٥٣٢هـ) في ٣ سنوات.

٥- خلافة المقتفى لأمر الله أبي عبدالله محمد بن المستظهر (٥٣٢- ٥٥٥هـ) في ٢٤ سنة، وذُكر أنه كان خليقاً بالخلافة لائقاً بها، مع إمامته وعلمه وفضله وشجاعته.

وكان الشيخ ابن الحنبلي قدم بغداد سنة (٥٢٣هـ) مستنصراً بالخليفة المسترشد بالله لنجدة المسلمين ضد الفرنج الصليبيين، فوعده الإجابة وأكرمه وخلع عليه الهدايا وأحسن وفادته.

○ المحور الثاني: الدويلات التي لها نفوذ في عصر ابن الحنبلي:

١- أما أبرز الدويلات القائمة فكانت دولة السلاجقة، وكانوا مسيطرين على بلاد الشام، مع بلاد خراسان وتركيا والحرمين، وكانت دولةُ السلاجقة أقوى الدول الموجودة في ذلك الزمان، وهم الذين وقفوا في وجه المد الصليبي وكاشفوهم مراراً، كما حاربوا الباطنية الإسماعيلية في عدة وقعات سجالاً، إلى أن قضوا عليهم واستأصلوا دولتهم في جبل

ألموت وجبال الديلم، وكان من أشهر ملوكهم المعاصرين لابن الحنبلي:

١- السلطان الكبير ملكشاة بن ألب أرسلان، وحكمه من (٤٦٥- ٤٨٥هـ) في إحدى وعشرين سنة، حيث تولى بعد والده ألب أرسلان.

٢- تولى بعده أخوه تاج الملوك تُتش بن ألب أرسلان (٤٨٥- ٤٨٨هـ) في أربع سنوات، وكان مجاهداً شجاعاً.

وكان محباً للإمام أبي الفرج عبدالواحد بن محمد الشيرازي الحنبلي، والد المؤلف الشيخ عبدالوهاب بن الحنبلي، ويحضر مجلسه.

وكان يعقد في مجلسه المناظرات بينه وبين الأشاعرة، حتى عقد له مجلس معهم مرة في مسألة القرآن ـ محل البحث هنا ـ وانتصر للشيخ أبي الفرج، وقال تتش:

«هذا مثل ما يقول، هذا قباء حقيقة ليس هو بحرير، ولا قطن، ولا كتان، ولا صوف»[1]، يعني بمنع المجاز، أو بمنع القول بالحكاية أو العبارة!

ولذا نقل الذهبي في ترجمة أبي الفرج في السير: «وكانت له كرامات ظاهرة، ووقعات مع الأشاعرة، وظهر عليهم بالحجة في مجلس السلاطين بالشام»[2] اهـ.

---

(١) نقله في ترجمته في سير أعلام النبلاء ١٩/ ٨٤، وانظر تاريخ الدولة السلجوقية ٧٥، والكامل ١٠/ ٢٤٤.

(٢) في سير أعلام النبلاء ١٩/ ٥٢.

بل ذكر ابن رجب الحنبلي في ترجمته للإمام أبي الفرج الحنبلي عن ابن أبي يعلى قوله :

« . . فبلغني أن تتش . . لما عزم على المجيء إلى بغداد في الدفعة الأولى، لما وصلها السلطان سأله الدعاء فدعا له بالسلامة فعاد سالماً .

فلما كان في الدفعة الثانية، استدعى السلطان ـ يعني ملكشاة ـ وهو ببغداد لأخيه «تُتش» فُرعب، وسأل أبا الفرج الدعاء له .

فقال له : لا تراه، ولا تجتمع به .

فقال له «تتش» وهو مقيم ببغداد، وقد برزت إلى عنده، ولابد من المصير إليه .

قال له : لا تراه! فعجب من ذلك، وبلغ «هِيتَ»، فجاءه الخبر بوفاة السلطان ببغداد، فعاد إلى دمشق، وزادت حشمة أبي الفرج عنده ومنزلته لديه . .

قال : وكان أبو الفرج ناصراً لاعتقادنا، متجرداً في نشره، مبطلاً لتأويل أخبار الصفات، وله تصنيف في الفقه والوعظ والأصول»[1] اهـ.

يعني أنه ناصر لاعتقاد الحنابلة أهل السنة والجماعة .

٣- ثم تولى بعده ابنه دقاق بن التاج تُتش بن ألب أرسلان (٤٨٨- ٥٠٧هـ) مدة عشر سنين .

٤- ثم تولى بعده مملوك أبيه، الملك طغتكين الأتابك (٥٠٧- ٥٢٢هـ)

---

(١) في ذيل طبقات الحنابلة ١/ ٧٠ .

مدة ١٥ سنة وكان سيفاً مصلتاً في حرب الصليبيين والباطنية .

٥- ثم عقبه ابنه تاج الملوك بُوري بن طغتكين الأتابك مولى تتش السلجوقي (٥٢٢-٥٢٦هـ) مدة خمس سنين، وكان عجبا في الجهاد، وفي عهده بعث الشيخ عبدالوهاب ابن الحنبلي سنة ٥٢٣هـ لطلب النصرة والمدد من الخليفة المسترشد بالله في بغداد لقتال النصارى الفرنج .

وكان الملك بوري عجباً في الجهاد، لا يفتر من غزو الفرنج، ولو كان معه عسكر كثيرٌ لاستأصل الفرنج .[١]

كما كان مجاهداً للإسماعيلية الباطنية حيث قتل منهم في دمشق في مديدة ستة آلاف، فعلم محمد بن صبَّاح رئيس الإسماعيلية بألموت، فدس له اثنين منهم فانتحلا زي الجند، حتى جرحاه في رقبته، لأنه قصد رأسه فلم يصبه فبقى متأثراً بجرحه إلى أن توفى مرحوماً .[٢]

ثم ولى بعده أبناؤه، ثم الملك العادل نور الدين زنكي السلجوقي، ثم صلاح الدين الأيوبي وابنه وأهل بيته .

والمقصود أنه كان لهذه الدولة جهاد للمشركين من النصارى والباطنية، شارك فيه مؤلفنا الشيخ عبدالوهاب بن الحنبلي، وهذا مما يُحْمَدُ، وتُحْمدُ عليه .

---

(١) ذكره الذهبي في ترجمته في السير ١٩/ ٥٧٥، والكامل لابن الأثير ١٠/ ٦٨٠ .

(٢) انظر ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ٣٦٥، والعبر ٤/ ٩٤، وتتمة المختصر ٢/ ٦٠، والسير ١٩/ ٥٧٤، ومرآة الزمان ٨/ ٨٧، وشذرات الذهب ٤/ ٧٨، ومنتخبات التواريخ ٤٤٧، ومعجم الأنساب والأسرات الحاكمات ٤٦ و٣٤٠، والوافي ١٠/ ٣٣٢، والنجوم ٥/ ٢٤٩ .

٢- وكان من الدويلات في عصر المؤلف دولة آل سبكتكين في المشرق في بلاد ما وراء النهر، في غزنة وما حولها.

وعاصر المؤلف منهم الملك المؤيد إبراهيم بن مسعود بن محمود بن سبكتكين وملكه (٤٥١-٤٨٠هـ).

واستمر ملكُ المُلوكِ من آل سبكتكين إلى سنة ٥٤٧هـ حيث انتهت دولتهم، وقامت على إثرها دولة ملوك الغورية بغزنة.

ولله الملك الدائم ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

٣- أما في الغرب فكانت دولة المرابطين في أوج قوتها في عهد السلطان يوسف بن تاشفين اللَّمتونى البربري الملثم[1] (٥٠٠هـ)، وله بضع وثمانون سنة، وهو الذي بنى مدينة مراكش في دولته سنة (٤٦٥هـ).

ولما ثارت النصارى في الأندلس عبر إليهم ابن تاشفين فقضى عليهم في معركة الزلاَّقة سنة ٤٧٩هـ[2]، ثم أعجبته الأندلس وبايعه ملوكها.

---

(١) ترجمه في: وفيات الأعيان ٧/ ١١٢، وعيون التواريخ ١٣/ ١٨١، والسير ١٩/ ٢٥٢، والعبر ١/ ٣٥٦، والشذرات ٣/ ٤١٢، ومعجم الأنساب ١١٣، والروض المعطار ٢٨٨، ودول الإسلام ٢/ ٢٨، والكامل ١٠/ ٤١٧، وصبح الأعشى ١/ ٣٦٣، والنجوم الزاهرة ٥/ ١٩٥، والحلل الموشية ١٢-٦٠، والمعجب ١٦٢، وتتمة المختصر ٢/ ٢٩، ونفح الطيب ٤/ ٣٥٤، والاستقصا ١/ ٢٢٤، والدرة المضيئة ٤٦٥.

(٢) وعن معركة الزلاَّقة يُنظر: نفح الطيب ٤/ ٣٥٤-٣٧١، والكامل ١٠/ ١٥١-١٥٥، والروض المعطار ٢٨٧-٢٩٢، ووفيات الأعيان ٧/ ١١٥، وتراجم إسلامية ٢٢٥-٢٣٤، وتاريخ الإسلام حوادث ٤٧٩ ص ٢٩، وتاريخ ابن القلانسي ١١٨، والمختصر في=

وكان كثير العفو، محباً للعلماء، شجاعاً عدلاً مهيباً.

وكان كتب على سكة نقوده: «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، وفي الدائرة حولها: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

وتولى بعده ابنه، وكانت دولة المرابطين على معتقد أهل السنة والجماعة في باب الصفات.

٤- هذا وقد سقطت دولة المرابطين ـ ودوام الملك لملك الملوك ـ على يد دولة محمد بن تومرت[1] (٥٢٤هـ) المسماه بدولة «الموحدين».

وكان أول أمره متفقهاً طالباً للعلم، ثم لما رحل إلى المشرق أخذ عن علماء الأشاعرة في عهده: أبي حامد الغزالي (٥٠٥هـ)، وإلكيا الهرّاسي (٥٠٤هـ) فلهج بالكلام وخاض في مزالق الأقدام، أسأل الله العافية.

ونُفي حتى بلغ المغرب فأثّر فيهم بدهائه وتبعه جماعات منهم وكان جلُّ ما يدعو إليه على عقائد الأشعرية، وأشياء وافق فيها المعتزلة، وكان يدعى أنه المهدي ويقول بعصمته وعصمة الأئمة، إلى أن كانت له قائمة

= أخبار البشر ٢/ ١٩٨، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٣.

(١) انظر ترجمته وأخباره ودولته في: تاريخ ابن خلدون ٦/ ٤٦٤، وتاريخ الإسلام وفيات ٥٢٤ سنة ١٠٦، وأخبار المهدي بن تومرت ودولة الموحدين للبيدق الصنهاجي، والكامل ١/ ٥٦٩، والمعجب ٢٤٥، والوفيات لابن خلكان ٥/ ٤٥، وتاريخ الدولتين للزركشي ١-٥، والاستقصا ٢/ ٧٨، والحلل الموشية ٧٨، والسير ١٩/ ٥٣٩، والعبر ٤/ ٥٧، وتذكرة الحفاظ ٤/ ١٢٧٤، وطبقات السبكي ٦/ ١٠٩، ومرآة الزمان ٨/ ٩١، وعيون التواريخ ١٣/ ٣٧٢، وخريدة القصر ١/ ١٦٧، والبداية والنهاية ١٢/ ١٨٦، والنجوم الزاهرة ٥/ ٢٥٤.

فقضى على دولة المرابطين، وقامت دولته بشر، وسماها «الموحدين» وسمى من عداهم من المرابطين «بالمجسمين» لاعتقادهم، وكان ألَّف عقيدة اسمها «المرشدة». (١)

وعلى كل حال هذه الدويلات التي قامت وتناثرت هنا وهناك لم تخل من المنازعات الداخلية والحروب فيما بينها للوصول إلى سيادتها أو محاولة التعدّي والتغلب على أختها والله المستعان.

وهذا مما أضعف الدولة الإسلامية وأطمع بها أعداءها من داخلها: الباطنية وأضرابهم، ومن خارجها: النصارى الصليبيين.

***

(١) وقد تكلم عليها شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالة ضمن الفتاوى ١١/ ٤٧٦-٤٩١ سميت الكلام على المرشدة، تناول فيها أصلها ومؤلفها وسبب تأليفها، وذكر في ثناياه ص ٤٨٩ أنه شرح ما في المرشدة كلمة كلمة مبيناً ما حوته من الخطأ والصواب، وأنه أخلى عقيدته مما يذكره أئمة السلف من صفات الله ورؤيته وأن كلامه غير مخلوق، وإنما وافق عقيدة المعتزلة في القدر، ووافق الفلاسفة والجهمية والشيعة بالقول بأن وجود الله وجود مطلق. وانظر: درء التعارض ٣/ ٤٣٨.
وكان لمحمد بن تومرت ودولته ومؤلفاته أثر سيء في العقيدة على بلاد المغرب العربي تمثل في إدخال خليط من بدع الاعتزال والأشاعرة، كما هو مبسوط في مقدمة ابن خلدون ٢٣٠، والعبر ٦/ ٢٢٦ «تاريخه»، والسلفية وأعلامها في موريتانيا ١٩٩ وما بعدها.

○ المحور الثالث: الحروب الصليبية:

تميز عصر الشيخ عبدالوهاب بن الحنبلي بعنف الحملة الصليبية على بلاد المسلمين ولاسيما بلاد الشام ومصر.

في الوقت الذي صاحبه قوة شوكة الباطنية الإسماعيلية، ونخرها لجسد الأمة الإسلامية في خراسان وجبال الديلم والألموت، ومن ثم امتدادهم إلى مركز الخلافة العباسية في بغداد، ومن ثم بلاد الشام، لدى إخوانهم الدروز والروافض في جبل كسروان، ودمشق.

وأيضاً وجود التناحر بين الأمراء على الأقاليم وأبناء السلاطين للاستحواذ على الحكم، والتحكم بالنفوذ.

كل هذه الأسباب وغيرها، زادت من شراشة وأثر الهجمات الصليبية على المشرق الإسلامي.

وفي الواقع كان من أبرز وأشرس هجمات الفرنج الصليبيين على بلاد المسلمين في عصر المؤلف مايلي:

١- في سنة (٤٩٠هـ) قدم الفرنج في عدد كبير في بحر القسطنطينية فحاصروا أنطاكية بعدما دخلوا عدة مدن حولها، وهزموا من تجمع حولها من المسلمين حتى دخلوها، واستباحوها، ولكن استردها المسلمون في العام التالي وطردوهم منها سنة ٤٩١هـ.

٢- في سنة (٤٩٢هـ) حاصروا بيت المقدس واستولوا عليه بعد محاصرته شهرين، ولما دخلوه قتلوا أزيد من سبعين ألفاً، فيهم من العلماء

والزهاد كثير[١] ، قاتلهم الله أنى يؤفكون .

٣- وفي سنة (٤٩٦هـ) انتصر الفرنج على صاحب حلب، ودخلوها .

٤- ودامت الحرب بينهم وبين بلاد أهل طرابلس الشام سجالاً من سنة (٤٩٦هـ) إلى (٥٠٠هـ) وأبلى المسلمون بلاءً حسناً بالصبر والمجاهدة .

٥- وفي سنة (٥٠٧هـ) اجتمع المسلمون من دمشق والموصل وبلاد الشام واقتتلوا مع النصارى الصليبيين في ١٣ من المحرم قرب طبريه قتالاً عظيماً، نصر الله فيه عباده المسلمين عليهم، وأضعف شوكتهم إلا أنها لم تنكسر بعدُ .

٦- وفي سنة (٥٠٩هـ) استرجع الملك تاج الدولة طغتكين صاحب دمشق مدينة رَفَنِيَّة[٢] ، فكتب له السلطان منشوراً بإمرة الشام جميعاً .

٧- وفي سنة (٥١٤هـ) التقى المسلمون والفرنج عند حلب، وفيها انهزم الصليبيون شر هزيمة .

---

(١) ذكره ابن الأثير في الكامل ١٠/ ٢٨٣-٢٨٤، وفي تاريخ ابن الوردي ٢/ ١٦، وتاريخ الإسلام حوادث ٤٩٢ ص ١٦-٢٠، وفي المنتظم ٩/ ١٠٥، وتاريخ مختصر الدول ١٩٧، ومآثر الإنافة ٢/ ١٥، وفيه ذكر أنهم (٩٠ ألفاً)، وفي تاريخ ابن خلدون ٥/ ٢١، ومرآة الجنان ٣/ ١٥٤، والعبر ٣/ ٣٣٢، ودول الإسلام ٢/ ٢١، واتعاظ الحنفا ٣/ ٢٣، والإعلام والتبيين ١١ وفيه أنهم (١٠٠ ألف) وبه صرح مؤرخ صليبي مجهول في كتاب أعمال الفرنجة ١١٨ .

(٢) كذا ضبطها ياقوت وقال: «مدينة من أعمال حمص يقال لها رفنية تدمر، وقال قوم: رفنية بلدة عند طرابلس من سواحل الشام» اهـ، من المعجم ٣/ ٥٥ .

٨- وفي سنة (٥١٨هـ) قدم عسكر عظيم من البحر فحاصروا مدينة صور حتى أخذوها، وحاصروا حلب وأطالوا حصارها وأضروا بالمسلمين فيها.

٩- وفي سنة (٥٢٠هـ) في ذي الحجة وقعت وقعة مرج الصُّفَّر، وفيها التقى المسلمون وعليهم تاج الدولة مع الفرنج، فانهزم طغتكين وتبعهم الفرنج فنهب التركمان المسلمون عسكر الفرنج، فلما عادوا رأوا أثقالهم قد نهبت، فانهزموا أيضاً.

١٠- وفي سنة (٥٢٣هـ) اجتمع المسلمون في الشام بقيادة تاج الملوك بورى بن طغتكين مع التركمان ضد النصارى الفرنج، وأرسل تاج الملوك في هذه السنة الشيخ عبدالوهاب بن الحنبلي إلى بغداد طالباً النصرة والنفير، ومعه أعيان من دمشق حتى هموا بكسر منبر الخلافة، فوعدهم المسترشد بالله بالنصر، وخلع عليهم الهدايا.

وثبت الفريقان، وأيد الله بنصره المسلمين فقتلوا من الصليبيين خَلْقاً وأسروا آخرين.

١١- وفي سنة (٥٢٧هـ) فتح المسلمون مدينة بانياس وقلعتها وطردوا منها الفرنج.

١٢- وكذا في سنة (٥٢٩هـ) استرد المسلمون بقيادة عماد الدين زنكي مَعرَّة النُعمان[1] من الصليبيين.

---

(١) مدينة كبيرة قديمة من أعمال حمص بين حلب وحماة في بلاد الشام، تُنسب إلى النعمان ابن بشير رضي الله عنهما حيث مات له فيها ابنٌ، فدفنه فيها. انظر معجم البلدان ٥/ ١٥٦، وآثار البلاد ٢٧٢.

١٣- ثم في سنة (٥٣٩هـ) استعادوا أيضاً إمارة الرها.

وتتابعت الحروب سجالاً بين الفريقين مع غلبة كفة المسلمين كثيراً حتى معركة حطين الفاصلة، فكسر الله شوكتهم وردهم بشر خيبة، وكانت بقيادة صلاح الدين بن أيوب عفا الله عنه.

وبالمناسبة لابد من الإشادة بثبات المسلمين وجهادهم ومصابرتهم لأعدائهم الصليبين.

وأيضاً الإشارة إلى مؤزارة الباطنية، ولاسيما روافض إسماعيلية كسروان والدروز في الشام لإخوانهم من النصارى الصليبيين، الذين وَحَّدَ بينهم العدو، قبحهم الله.

وهو ما سيكون في المحور الرابع إن شاء الله.

○ المحور الرابع: ثورات الباطنية:

شغل الكلام على ثورات الإسماعيلية وحروبهم مع أمراء النواحي من المسلمين وإثارتهم للفتن، شغل ذلك مساحات من عرض المؤرخين لأحداث العقد الذي عاش فيه الشيخ ابن الحنبلي، وما قبله أيضاً.

وكان ذلك بعد سقوط دولتهم بمصر، الدولة العبيدية، والتي زرعت الشر الإسماعيلي في أنحاء عديدة من بلاد المسلمين، ولم يزل فيها شرهم إلى عهدنا هذا، خصوصاً في الهند وجنوب الجزيرة.

وإليك أخي القارئ موجزاً عاماً لمجمل فتنهم في عصر المؤلف ابن الحنبلي، كفى الله أهل الإسلام شرهم.

١- وذلك أنهم في سنة (٤٩٤هـ) ظهروا ببغداد وكثروا وأشغبوا حيث اجتمعوا لصلاة عيدهم، وكان مقدمهم الذي له الطاعة التامة عندهم اسمه الحسن بن علي بن محمد بن الصبَّاح الحميري من أهل مرو، وهو مؤسس فرق الحشاشين (٤٢٨-٥١٨هـ)، ادعى الصلاح حتى غَرَّ أهل الديلم فاعتقدوا به وسار بمن معه من المغفلين فدخل خراسان واستولى على أصبهان، ودخل كاشغر[١] والنواحي، ولما رأى قلعة ألموت[٢]، أقام فيها لكونها حصينة جداً ومنيعة، فمازال الأمراء والوزراء يرسلون إليهم الجند، ولكن لا ينالون منهم شيئاً حتى قتلوا الوزير نظام الملك سراً؛ إذ أعمالهم تتم بالسرية التامة، ومازلوا ينمون ويبنون الحصون والقلاع، حتى نهبوا سنة (٤٩٨هـ) حجاج الهند وما وراء النهر، ثم قتلوهم سحراً، على حين غرة.

حتى كانت سنة (٥٠٠هـ) وفيها حاربهم السلطان محمد جاولى سقاوو السلجوقي وانتزع منهم أصبهان، ولكن لم يستأصل شأفتهم لتغلغلهم بين الناس، وانطلاء باطلهم على العوام، وطيهم أمورهم بالكتمان والسرية.

---

(١) مدينة وقرى على حدود بلاد الصين، ووسط بلاد الترك وأهلها مسلمون. انظر: معجم البلدان ٤/ ٤٣٠ وآثار البلاد ٤١٢-٤١٤ وفيه أشار إلى حوادث الباطنية فيها.

(٢) في بلاد قزوين، وجبال الديلم، ومعنى ألموت - وربما أُطلق عليها أولاً إله الراموت - بلسان الديلم: تعليم العقاب، لأن أحد ملوكهم أرسل عقاباً للصيد فوقع على موضع ألموت فرآه حصيناً، فبنى عليه قلعة وسماها إله الراموت. ويسمى ذلك الموضع وما حوله: الطالقان، وينظر تاريخ الوردي ٢/ ١٣، والمختصر في أخبار البشر ٢/ ٢١٤، وآثار البلاد ٣٣٠.

٢- وفي سنة (٥٠٢هـ) قتلوا قاضي أصبهان عبيدالله بن علي الخطيبي بهمدان، وشيخ الشافعية أبا المحاسن عبدالواحد الرُّوياني لأنهما كان يعترضان عليهم ويكشفان شبههم وأسرارهم.[١]

٣- وفي سنة (٥٢٠هـ) استفحل أمر الباطنية فثاروا بخراسان، وقتلوا من عسكر السلطان مقتلة كبيرة، وقتلوا ملك الموصل وهو في الصلاة.

وكثروا في بلاد الشام حتى هابهم الكبراء والناس، وكان رئيسهم فيها يُدعى بهرام الإسماعيلي، واستغووا وزير ملك الشام طغتكين المدعو الوزير ظاهر بن سعد المزدقاني فأعطاهم بلده بانياس، وعظم هذا على العلماء وأهل الديانة.

٤- ولما أراد الله هلاكهم سار بهرام سنة (٥٢٣هـ) إلى بغداد وإلى الشام ودعا إلى مذهبهم، وتحالفوا مع النصارى الصليبيين، ففطن لهم المسلمون فقتلوهم بدمشق شر قتلة وكانوا ستة آلاف، ومعهم الوزير المزدقاني الخبيث، وكان قَتْلُهم في وادي التِّيم.

٥- إلا أنهم في سنة (٥٢٦هـ) قتلوا تاج الملوك بورى بن طغتكين صاحب دمشق وذلك أنهم جرحوه في رقبته ولم يتمكنوا من عنقه، فمات متأثراً بجرحه، كما سبق.

٦- كما قتلوا الخليفة العباسي المسترشد بالله سنة ٥٢٩هـ.

---

(١) انظر في مقتلهما: الكامل لابن الأثير ١٠/ ٤٧٢، والمنتظم ٩/ ١٦٠، والعبر ٤/ ٤، وتاريخ الإسلام في حوادث ٤٠٢ ص ١٤-١٥، ومرآة الجنان ٣/ ١٧١، والشذرات ٤/ ٤، وتاريخ الخميس ٢/ ٣٦١.

والمقصود أن شرهم متوجه لأصل الدين، إذ لا يتورعون عن قتل أمير أو عالم لأجل أغراضهم، كما لم يتورعوا عن تأليب النصارى على المسلمين وكيف كانوا ينتهزون الفرص لتحقيق مآربهم، وطويهم السرية والكتمان منهج عمل وعقيدة، وهم كذلك في زمننا، أعاذ الله من شرهم، حتى حكم عليهم علماء المسلمين بالنفاق، وأنهم أكفر من اليهود والنصارى، وأعظم خطراً على الدين من المشركين.[1]

○ **أما الناحية الاجتماعية:**

فإن طبيعة العصر الذي عاشه ابن الحنبلي، كانت مختلطة من الناحية الاجتماعية، أي أنه حصل اختلاط للجنس العربي بالأعاجم، لاسيما أنّ ملوك البلاد من السلاجقة كانوا أعاجم.

فكانت بلاد الشام كنموذج من بلاد المشرق الإسلامي تتكون من طبقات مجتمعها من أجناس: العرب، والأتراك ووجودهم ظاهر بسبب دولة آل سلجوق، والتركمان، والأكراد، والخراسانيين، والفرنج الوافدين مع الغزو الصليبي من أوروبا.

---

(١) وممن تناول ذلك القاضي أبو بكر بن الباقلاني في كتابه «كشف الأسرار» وله أسماء أخر، واختصره أبو حامد الغزالي في كتابه «فضائح الباطنية» وكتب أبو حامد في فضحهم «جواب المسائل الأربع» مما ورده من باطنية همدان، وكتب «القسطاس المستقيم».
وكتب فيهم القاضي أبو يعلى الحنبلي، وأبو الوفاء بن عقيل، وأبو عبدالله الشهرستاني، وشيخ الإسلام ابن تيمية في مواضع كرسالته في النصيرية ضمن المجموع ٣٥/ ١٤٥-١٦٠، والرد على رافضة كسروان.
وانظر: ما سبق في منهاج السنة ٨/ ١٤، وإحياء علوم الدين ٢/ ١٣٠، والبداية والنهاية ١١/ ٣٥٠ و٣٤٦.